(١١١) سورة المسد مكية وآياتها خمس

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أنه تعالى قال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ثم بين فى سورة (قل يا أيها الكافرون) أن محمداً عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وصرح بنفى عبادة الشركاء والاضداد وان الكافر عصى ربه واشتغل بعبادة الأضداد والأنداد ، فكأنه قيل : إلهنا ما ثواب المطيع ، وما عقاب العاصى ؟ فقال ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستيلاء فى الدنيا والثواب الجزيل فى العقبى ، كما دل عليه سورة (إذا جاء نصر الله) وأما عقاب العاصى فهو الخسار فى الدنيا والعقاب العظيم فى العقبى ، كما دلت عليه سورة (تبت) ونظيره قوله تعالى فى آخر سورة الأنعام (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فكأنه قيل إلهنا أنت الجواد المنزه عن البخل والقادر المنزه عن العجز ، فما السبب فى هذا التفاوت ؟ فقال (ليبلوكم فيما آتاكم) فكأنه قيل إلهنا فإذا كان العبد مذنباً عاصياً فكيف حاله ؟ فقال فى الجواب (إن ربك سريع العقاب) وإن كان مطيعاً منقاداً كان جزاؤه أن الرب تعالى يكون غفوراً لسيئاته فى الدنيا رحيما كريما فى الآخرة ، وذكروا فى سبب نزول هذه السورة وجوهاً (أحدها) قال ابن عباس كان رسول الله يكتم أمره فى أول المبعث ويصلى فى شعاب مكة ثلاث سنين إلى أن نزل قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) فصعد الصفا ونادى يا آل غالب فخرجت إليه غالب من المسجد فقال أبو لهب هذه غالب قد أتتك فما عندك ؟ ثم نادى يا آل لؤى فرجع من لم يكن من لؤى فقال أبو لهب هذه لؤى قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال يا آل مرة فرجع من لم يكن من مرة ، فقال أبو لهب هذه مرة قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال يا آل كلاب ، ثم قال بعده يا آل قصى ، فقال أبو لهب هذه قصى قد أتتك فما عندك ؟ فقال إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وأنتم الأقربون ، اعلموا أنى لا أملك لكم من الدنيا حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم فقال أبو لهب عند ذلك تباً لك ألهذا دعوتنا ، فنزلت السورة (وثانيها) روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الصفا ذات يوم وقال ياصباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك ؟ قال أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا بلى قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال عند ذلك أبو لهب ماقال فنزلت السورة (وثالثها) أنه جمع أعمامه وقدم إليهم طعاماً فى صحفة فاستحقروه وقالوا إن أحدنا يأكل كل الشاة ، فقال كلوا فأكلوا حتى شبعوا ولم ينقص من الطعام إلا اليسير ، ثم قالوا فما عندك ؟ فدعاهم إلى الإسلام فقال أبو لهب ماقال ، وروى أنه قال أبو لهب فمالى إن أسلمت فقال ما للمسلمين ، فقال أفلا أفضل عليهم ؟ فقال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ

النبي عليه الصلاة والسلام بماذا تفضل ! فقال تباً لهذا الدين يستوى فيه أنا وغيرى (ورابعها) كان إذا وفد على النبي وفد سألوا عمه عنه وقالوا أنت أعلم به فيقول لهم إنه ساحر فيرجعون عنه ولا يلقونه ، فأتاه وفد فقال لهم مثل ذلك فقالوا لا ننصرف حتى نراه فقال إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتباً له وتعساً ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فحزن ونزلت السورة .

قوله تعالى : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ اعلم أن قوله (تبت) فيه أقاويل (أحدها) التباب الهلاك ، ومنه قولهم شابة أم تابة أى هالكة من الهرم ، ونظيره قوله تعالى (وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى فى هلاك ، والذى يقرر ذلك أن الأعرابى لما واقع أهله فى نهار رمضان قال : هلكت وأهلكت ، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام ما أنكر ذلك ، فدل على أنه كان صادقاً فى ذلك ، ولا شك أن العمل إما أن يكون داخلا فى الإيمان ، أو إن كان داخلا لكنه أضعف أجزائه ، فإذا كان بترك العمل حصل الهلاك ، ففى حق أبى لهب حصل ترك الاعتقاد والقول والعمل ، وحصل وجود الاعتقاد الباطل ، والقول الباطل ، والعمل الباطل ، فكيف يعقل أن لا يحصل معنى الهلاك ، فلهذا قال (تبت) (وثانيها) تبت خسرت ، والتباب هو الخسران المفضى إلى الهلاك ، ومنه قوله تعالى (وما زادوهم غير تتبيب) أى تخسير بدليل أنه قال فى موضع آخر غير تخسير (وثالثها) تبت خابت ، قال ابن عباس لأنه كان يدفع القوم عنه بقوله إنه ساحر ، فينصرفون عنه قبل لقائه لأنه كان شيخ القبيلة وكان له كالأب فكان لا يتهم ، فلما نزلت السورة وسمع بها غضب وأظهر العداوة الشديدة فصار متهماً فلم يقبل قوله فى الرسول بعد ذلك ، فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه ، ولعله إنما ذكر اليد لأنه كان يضرب بيده على كتف الوافد عليه ، فيقول انصرف راشداً فانه مجنون ، فإن المعتاد أن من يصرف إنساناً عن موضع وضع يده على كتفه ودفعه عن ذلك الموضع (ورابعها) عن عطاء تبت أى غلبت لأنه كان يعتقد أن يده هى العليا وأنه يخرجه من مكة ويذله ويغلب عليه (وخامسها) عن ابن وثاب : صفرت يداه على كل خير ، وإن قيل مافائدة ذكر اليد ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) ما يرى أنه أخذ حجراً ليرمى به رسول الله ، روى عن طارق المحاربى أنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السوق يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقبيه ،

وَتَبَّ ﴿١﴾

لا تطيعوه فإنه كذاب ، فقلت من هذا ، فقالوا : محمد وعمه أبو لهب (وثانيها) المراد من اليدين الجملة كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك) ومنه قولهم : يداك أوكتا ، وقوله تعالى (مما عملت أيدينا) وهذا التأويل متأكد بقوله (وتب) (وثالثها) تبت يداه أى دينه ودنياه أولاه وعقباه ، أو لأن بإحدى اليدين تجر المنفعة ، وبالأخرى تدفع المضرة ، أو لأن اليمنى سلاح والأخرى جنة (ورابعها) روى أنه عليه السلام لما دعاه نهاراً فأبى ، فلما جن الليل ذهب إلى داره مستناً بسنة نوح ليدعوه ليلا كما دعاه نهاراً ، فلما دخل عليه قال له جئتنى معتذراً فجلس النبي عليه السلام أمامه كالمحتاج ، وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال : إن كان يمنعك العار فأجبنى فى هذا الوقت واسكت ، فقال لا أومن بك حتى يؤمن بك هذا الجدى ، فقال عليه الصلاة والسلام للجدى : من أنا ؟ فقال رسول الله . وأطلق لسانه يثنى عليه ، فاستولى الحسد على أبى لهب ، فأخذ يدى الجدى ومزقه وقال : تباً لك أثر فيك السحر ، فقال الجدى : بل تباً لك ، فنزلت السورة على وفق ذلك (تبت يدا أبى لهب) لتمزيقه يدى الجدى (وخامسها) قال محمد بن إسحق : يروى أن أبالهب كان يقول : يعدنى محمد أشياء ، لا أرى أنها كائنة يزعم أنها بعد الموت ، فلم يضع فى يدى من ذلك شيئاً ، ثم ينفخ فى يديه ويقول : تباً لكما ما أرى فيكما شيئاً ، فنزلت السورة .

أما قوله تعالى ﴿وتب﴾ ففيه وجوه (أحدها) أنه أخرج الأول مخرج الدعاء عليه كقوله (قتل الإنسان ما أكفره) والثانى مخرج الخبر أى كان ذلك وحصل ، ويؤيده قراءة ابن مسعود وقد تب (وثانيها) كل واحد منهما إخبار ولكن أراد بالأول هلاك عمله ، وبالثانى هلاك نفسه ووجهه أن المرء إنما يسعى لمصلحة نفسه وعمله ، فأخبر الله تعالى أنه محروم من الأمرين (وثالثها) (تبت يدا أبى لهب) يعنى ماله ومنه يقال ذات اليد (وتب) هو بنفسه كما يقال (خسروا أنفسهم وأهليهم) وهو قول أبى مسلم (ورابعها) (تبت يدا أبى لهب) يعنى نفسه (وتب) يعنى ولده عتبة على ما روى أن عتبة بن أبى لهب خرج إلى الشأم مع أناس من قريش فلما هموا أن يرجعوا قال لهم عتبة بلغوا محمداً عنى أنى قد كفرت بالنجم إذا هوى ، وروى أنه قال ذلك فى وجه رسول الله وتفل فى وجهه ، وكان مبالغاً فى عداوته ، فقال اللهم سلط عليه كلباً من كلابك فوقع الرعب فى قلب عتبة وكان يحترز فسار ليلة من الليالى فلما كان قريباً من الصبح ، فقال له أصحابه هلكت الركاب فما زالوا به حتى نزل وهو مرعوب وأناخ الإبل حوله كالسرادق فسلط الله عليه الأسد وألقى السكينة على الإبل فجعل الأسد يتخلل حتى افترسه ومزقه ، فإن قيل نزول هذه السورة كان قبل هذه الوقعة ، وقوله (وتب) إخبار عن الماضى ، فكيف يحمل عليه ؟ قلنا لأنه كان فى معلومه تعالى أنه يحصل ذلك

(وخامسها) (تبت يدا أبى لهب) حيث لم يعرف حق ربه (وتب) حيث لم يعرف حق رسوله وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لماذا كناه مع أنه كالكذب إذ لم يكن له ولد اسمه لهب ، وأيضاً فالتكنية من باب التعظيم ؟ (والجواب) عن الأول أن التكنية قد تكون اسماً ، ويؤيده قراءة من قرأ تبت يدا أبو لهب كما يقال على بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان ، فإن هؤلاء أسماؤهم كناهم ، وأما معنى التعظيم فأجيب عنه من وجوه (أحدها) أنه لما كان اسما خرج عن إفادة التعظيم (والثانى) أنه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه إلى كنيته (والثالث) أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته ، فكان جديراً بأن يذكر بها ، ويقال أبو لهب كما يقال أبو الشر للشرير وأبو الخير للخير (الرابع) كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، فيجوز أن يذكر بذلك تهكما به واحتقاراً له .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان نبى الرحمة والخلق العظيم ، فكيف يليق به أن يشافه عمه بهذا التغليظ الشديد ، وكان نوح مع أنه فى نهاية التغليظ على الكفار قال فى ابنه الكافر إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق ، وكان إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه بالشفقة فى قوله يا أبت يا أبت وأبوه كان يخاطبه بالتغليظ الشديد ، ولما قال له (لأرجمنك واهجرنى ملياً) قال (سلام عليك سأستغفر لك ربى) وأما موسى عليه السلام فلما بعثه إلى فرعون قال له ولهرون (فقولا له قولا ليناً) مع أن جرم فرعون كان أغلظ من جرم أبى لهب ، كيف ومن شرع محمد عليه الصلاة والسلام أن الأب لا يقتل بابنه قصاصاً ولا يقيم الرجم عليه وإن خاصمه أبوه وهو كافر فى الحرب فلا يقتله بل يدفعه عن نفسه حتى يقتله غيره (والجواب) من وجوه (أحدها) أنه كان يصرف الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام بقوله : إنه مجنون والناس ما كانوا يتهمونه ، لأنه كان كالأب له ، فصار ذلك كالمانع من أداء الرسالة إلى الخلق فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة ، فصار بسبب تلك العداوة متهماً فى القدح فى محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك (وثانيها) أن الحكمة فى ذلك ، أن محمداً لو كان يداهن أحداً فى الدين ويسامحه فيه ، لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذى هو قائم مقام أبيه ، فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطماع وعلم كل أحد أنه لا يسامح أحداً فى شىء يتعلق بالدين أصلا (وثالثها) أن الوجه الذى ذكرتم كالمتعارض ، فإن كونه عماً يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه ، فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة ، لا جرم استحق التغليظ العظيم .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما السبب فى أنه لم يقل قل (تبت يدا أبى لهب وتب) وقال فى سورة الكافرون (قل يا أيها الكافرون) ؟ (الجواب) من وجوه (الأول) لأن قرابة العمومة تقتضى

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾

رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له قل ذلك لئلا يكون مشافهاً لعمه بالشتم بخلاف السورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعماماً له . (الثانى) أن الكفار فى تلك السورة طعنوا فى الله فقال الله تعالى يامحمد أجب عنهم (قل يا أيها الكافرون) وفى هذه السورة طعنوا فى محمد ، فقال الله تعالى أسكت أنت فإنى أشتمهم (تبت يدا أبى لهب) (الثالث) لما شتموك .. فاسكت حتى تندرج تحت هذه الآية (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وإذا سكت أنت أكون أنا المجيب عنك ، يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فبقى ساكتا ، فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويزجره ، فلما شرع أبو بكر فى الجواب سكت الرسول ، فقال أبو بكر : ما السبب فى ذلك ؟ قال : لأنك حين كنت ساكتاً كان الملك يجيب عنك ، فلما شرعت فى الجواب انصرف الملك وجاء الشيطان .

واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفيه كان الله ذاباً عنه وناصراً له ومعيناً .

﴿السؤال الرابع﴾ ما الوجه فى قراءة عبدالله بن كثير المكى حيث كان يقرأ (أبى لهب) ساكنة الهاء ؟ (الجواب) قال أبو على يشبه أن يكون لهب ولهب لغتين كالشمع والشمع والنهر والنهر ، وأجمعوا فى قوله (سيصلى ناراً ذات لهب) على فتح الهاء ، وكذا قوله (ولا يغنى من اللهب) وذلك يدل على أن الفتح أوجه من الإسكان ، وقال غيره إنما اتفقوا على الفتح فى الثانية مراعاة لوفاق الفواصل .

قوله تعالى : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما فى قوله (ما اغنى) يحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار ، ويحتمل أن يكون نفياً ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى أى تأثير كان لماله وكسبه فى دفع البلاء عنه ، فإنه لا أحداً كثر مالا من قارون فهل دفع الموت عنه ، ولا أعظم ملكا من سليمان فهل دفع الموت عنه ، وعلى التقدير الثانى يكون ذلك إخباراً بأن المال والكسب لا ينفع فى ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما كسب مرفوع وما موصولة أو مصدرية يعنى مكسوبه أو كسبه ، يروى أنه كان يقول إن كان مايقول ابن أخى حقاً فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وأولادى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ثم ذكروا فى المعنى وجوهاً : (أحدها) لم ينفعه ماله وما كسب بماله يعنى رأس المال والأرباح (وثانيها) أن المال هو الماشية وما كسب من نسلها ، ونتاجها ، فإنه كان صاحب النعم والنتاج (وثالثها) (ماله) الذى ورثه من أبيه والذى كسبه بنفسه (ورابعها) قال ابن عباس (ما كسب) ولده ، والدليل عليه قوله عليه السلام « إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » وقال عليه السلام « أنت ومالك لأبيك » وروى أن بنى أبى لهب احتكموا إليه فاقتتلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع : فغضب فقال أخرجوا عنى الكسب

سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾

الخبيث (وخامسها) قال الضحاك ما ينفعه ماله وعمله الخبيث يعنى كيده فى عداوة رسول الله (وسادسها) قال قتادة (وما كسب) أى عمله الذى ظن أنه منه على شيء كقوله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال ههنا (ما أغنى عنه ماله وما كسب) وقال فى سورة (والليل إذا يغشى) : (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) فما الفرق ؟ (الجواب) التعبير بلفظ الماضى يكون آكد كقوله (ما أغنى عنى ماليه) وقوله (أتى أمر الله) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما أغنى عنه ماله وكسبه فيماذا ؟ (الجواب) قال بعضهم فى عداوة الرسول فلم يغلب عليه ، وقال بعضهم بل لم يغنيا عنه فى دفع النار ولذلك قال (سيصلى) .

قوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما أخبر تعالى عن حال أبى لهب فى الماضى بالتباب وبأنه ما أغنى عنه ماله وكسبه ، أخبر عن حاله فى المستقبل بأنه (سيصلى ناراً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (سيصلى) قرىء بفتح الياء وبضمها مخففاً ومشدداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآيات تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه (أحدها) الإخبار عنه بالتباب والخسار ، وقد كان كذلك (وثانيها) الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده ، وقد كان كذلك . روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام دخل بيتنا ، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا ، وكان العباس يهاب القوم ويكتم إسلامه ، وكان أبو لهب تخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاص بن هشام ، ولم يتخلف رجل منهم إلا بعث مكانه رجلا آخر ، فلما جاء الخبر عن واقعة أهل بدر وجدنا فى أنفسنا قوة ، وكنت رجلا ضعيفاً وكنت أعمل القداح أنحتها فى حجرة زمزم ، فكنت جالساً هناك وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه ، فجلس على طنب الحجرة وكان ظهرى إلى ظهره ، فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحرث ابن عبد المطلب ، فقال له أبو لهب : كيف الخبر يا ابن أخى ؟ فقال لقينا القوم ومنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف أرادوا ، وايم الله مع ذلك تأملت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة ، ثم قلت أولئك والله الملائكة ، فأخذنى وضربنى على الأرض ، ثم برك على فضربنى وكنت رجلا ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود فضربته على رأسه وشجته ، وقالت تستضعفه أن غاب سيده ، والله نحن مؤمنون منذ أيام كثيرة ، وقد صدق فيما قال ، فانصرف ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته ،

وَامْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾

ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفنانه حتى أنتن فى بيته ، وكانت قريش تتقى العدسة وعدواها كما يتقى الناس الطاعون ، وقالوا نخشى هذه القرحة ، ثم دفنوه وتركوه ، فهذا معنى قوله (ما أغنى عنه ماله وما كسب) (وثالثها) الإخبار بأنه من أهل النار ، وقد كان كذلك لأنه مات على الكفر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أهل السنة على وقوع تكليف ما لا يطاق بأن الله تعالى كلف أبا لهب بالإيمان ، ومن جملة الإيمان تصديق الله فى كل ما أخبر عنه ، ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار ، فقد صار مكلفاً بأنه يؤمن بأنه لا يؤمن ، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال. وأجاب الكعبى وأبو الحسين البصرى بأنه لو آمن أبو لهب لكان لهذا الخبر خبراً بأنه آمن ، لا بأنه ما آمن ، وأجاب القاضى عنه فقال متى قيل لو فعل الله ما أخبر أنه لا يفعله فكيف يكون ؟ فجوابنا أنه لا يصح الجواب عن ذلك بلا أو نعم .

واعلم أن هذين الجوابين فى غاية السقوط ، أما (الأول) فلأن هذه الآية دالة على أن خبر الله عن عدم إيمانه واقع ، والخبر الصدق عن عدم إيمانه ينافيه وجود الإيمان منافاة ذاتية ممتنعة الزوال فإذا كان كلفه أن يأتى بالإيمان مع وجود هذا الخبر فقد كلفه بالجمع بين المتنافيين .

وأما الجواب (الثانى) فأرك من الأول لأنا لسنا فى طلب أن يذكروا بلسانهم لا أو نعم ، بل صريح العقل شاهد بأن بين كون الخبر عن عدم الإيمان صدقاً ، وبين وجود الإيمان منافاة ذاتية ، فكان التكليف بتحصيل أحد المتضادين حال حصول الآخر تكليفاً بالجمع بين الضدين ، وهذا الإشكال قائم سواء ذكر الخصم بلسانه شيئاً أو بقى ساكتاً .

قوله تعالى : ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء ومريئته بالتصغير وقرىء حمالة الحطب بالنصب على الشتم ، قال صاحب الكشاف وأنا أستحب هذه القراءة وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل من أحب شتم أم جميل وقرىء بالنصب والتنوين والرفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان بن حرب عمة معاوية ، وكانت فى غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكروا فى تفسير كونها حمالة الحطب وجوهاً : (أحدها) انها كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل فى طريق رسول الله ، فإن قيل إنها كانت من بيت العز فكيف يقال إنها حمالة الحطب ؟ قلنا لعلها كانت مع كثرة مالها خسيسة او كانت لشدة عداوتها تحمل بنفسها الشوك والحطب ، لأجل ان تلقيه فى طريق رسول الله (وثانيها) انها كانت تمشى بالنميمة يقال المشاء بالنمائم المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أى يوقد بينهم النائرة ، ويقال للمكثار : هو حاطب

ليل (وثالثها) قول قتادة أنها كانت تعير رسول الله بالفقر ، فعيرت بأنها كانت تحتطب (والرابع) قول أبي مسلم وسعيد بن جبير أن المراد ماحملت من الآثام في عداوة الرسول ، لأنه كالحطب في تصييرها إلى النار ، ونظيره أنه تعالى شبه فاعل الإثم بمن يمشي وعلى ظهره حمل ، قال تعالى (فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) وقال تعالى (يحملون أوزارهم على ظهورهم) وقال تعالى (وحملها الإنسان) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ امرأته إن رفعته ، ففيه وجهان (أحدهما) العطف على الضمير في سيصلى ، أي سيصلى هو وامرأته . وفي جيدها في موضع الحال (والثاني) الرفع على الابتداء ، وفي جيدها الخبر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ عن أسماء لما نزلت (تبت) جاءت أم جميل ولها ولولة وبيدها حجر ، فدخلت المسجد ، ورسول الله جالس ومعه أبو بكر ، وهي تقول :

مذمماً قلينا ودينه أبينا وحكمه عصينا

فقال أبو بكر : يارسول الله قد أقبلت إليك فأنا أخاف أن تراك ، فقال عليه السلام « إنها لا تراني » وقرأ) وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) وقالت لأبي بكر : قد ذكر لي أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ماهجاك ، فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها

وفي هذه الحكاية أبحاث :

﴿ الأول ﴾ كيف جاز في أم جميل أن لا ترى الرسول ، وترى أبا بكر والمكان واحد ؟ (الجواب) أما على قول أصحابنا فالسؤال زائل ، لأن عند حصول الشرائط يكون الإدراك جائزاً لا واجباً ، فإن خلق الله الإدراك رأى وإلا فلا ، وأما المعتزلة فذكروا فيه وجوها (أحدها) لعله عليه السلام أعرض وجهه عنها وولاها ظهره ، ثم إنها كانت لغاية غضبها لم تفتش ، أو لأن الله ألقى في قلبها خوفاً ، فصار ذلك صارفاً لها عن النظر (وثانيها) لعل الله تعالى ألقى شبه إنسان آخر على الرسول ، كما فعل ذلك بعيسى (وثالثها) لعل الله تعالى حول شعاع بصرها عن ذلك السمت حتى أنها ما رأته .

واعلم أن الإشكال على الوجوه الثلاثة لازم ، لأن بهذه الوجوه عرفنا أنه يمكن أن يكون الشيء حاضر ولا نراه ، وإذا جوزنا ذلك فلم لا يجوز أن يكون عندنا فيلات وبوقات ، ولا نراها ولا نسمعها .

﴿ البحث الثاني ﴾ أن أبا بكر حلف أنه ما هجاك ، وهذا من باب المعاريض ، لأن القرآن لا يسمى هجواً ، ولأنه كلام الله لا كلام الرسول ، فدلت هذه الحكاية على جواز المعاريض .

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

بقى من مباحث هذه الآية سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يكتف بقوله (وامرأته) بل وصفها بأنها حمالة الحطب ؟ (الجواب) قيل كان له امرأتان سواها فأراد الله تعالى أن لا يظن ظان أنه أراد كل من كانت امرأة له ، بل ليس المراد إلا هذه الواحدة .

﴿السؤال الثانى﴾ أن ذكر النساء لا يليق بأهل الكرم والمروءة ، فكيف يليق ذكرها بكلام الله ، ولا سيما امرأة العم ؟ (الجواب) لما لم يستبعد فى امرأة نوح وامرأة لوط بسبب كفر تينك المرأتين ، فلأن لا يستبعد فى امرأة كافرة زوجها رجل كافر أولى .

قوله تعالى : ﴿ فى جيدها حبل من مسد ﴾ قال الواحدى : المسد فى كلام العرب الفتل ، يقال مسد الحبل يمسده مسداً إذا أجاد فتله ، ورجل ممسود إذا كان مجدول الخلق ، والمسد ما مسد أى فتل من أى شيء كان ، فيقال لما فتل من جلود الإبل ، ومن الليف والخوص مسد . ولما فتل من الحديد أيضاً مسد ، إذا عرفت هذا فنقول ذكر المفسرون وجوهاً (أحدها) فى جيدها حبل مما مسد من الحبال لأنها كانت تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابون ، والمقصود بيان خساستها تشبيهاً لها بالحطابات إيذاء لها ولزوجها (وثانيها) أن يكون المعنى أن حالها يكون فى نار جهنم على الصورة التى كانت عليها حين كانت تحمل الحزمة من الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم وفى جيدها حبل من سلاسل النار .

فإن قيل الحبل المتخذ من المسد كيف يبقى أبداً فى النار ؟ قلنا كما يبقى الجلد واللحم والعظم أبداً فى النار ، ومنهم من قال ذلك المسد يكون من الحديد ، وظن من ظن أن المسد لا يكون من الحديد خطأ ، لأن المسد هو المفتول سواء كان من الحديد أو من غيره ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين .

سورة «تبت»

وهي مكية بإجماع، وهي خمس آيات

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ في «الصحيحين» وغيرهما ـ واللفظ لمسلم ـ عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ورَهْطَكَ مِنْهُمُ المُخلَصين[١]، خرج رسولُ الله ﷺ حتى صَعِد الصَّفَا، فهتَفَ: يا صَباحاه، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بَني فُلان، يا بني فلان، يا بني فُلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطَّلِب» فاجتمعوا إليه، فقال: «أرَأَيْتَكُمْ لو أخبرتُكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بين يَدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبًّا لَكَ، أما جمعتنا إلَّا لهذا، ثم قام، فنزلت هذه السورة «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وقَدْ تب» كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة[٢].

زاد الحُميدي وغيره: فلما سمعت امرأتُه ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أَتَتْ رسولَ الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر ﷺ، وفي يدها فِهْر[٣] من حجارة، فلما وقفتْ عليه أخذ الله بصرَها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر، إنَّ صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدتُه لَضربتُ بهذا الفِهْر فاه، والله إني لشاعرة:

مُذَمَّماً عَصَيْنَا　　وأمرَهُ أَبَيْنَا　　وَدِينَه قَلَيْنا

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ٣/ ٨٢ : ظاهر هذه العبارة أن قوله: ورَهْطك منهم المخلصين كان قرآناً أُنزل، ثم نُسخت تلاوته.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٧١)، وصحيح مسلم (٢٠٨)، وهو في مسند أحمد (٢٥٤٤). وسلف ١٧/ ٣٣٠ .

(٣) الفِهْر: الحجر ملء الكف، وقيل: الحجر مطلقاً. النهاية (فهر).

ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتْك؟ قال: «ما رأتني، لقد أخذ اللهُ بصرَها عني»(١). وكانت قريش إنما تُسمِّي رسولَ الله ﷺ مُذَمَّماً؛ يسبُّونه، وكان يقول: «ألا تعجبون لِما صرفَ الله عني من أذى قريش، يَسُبّون ويهجون مُذمَّماً وأنا محمد».

وقيل: إن سببَ نزولها ما حكاه عبد الرحمن بن زيد: أن أبا لهب أتى النبيَّ ﷺ فقال: ماذا أُعْطَى إن آمنتُ بك يا محمد؟ فقال: «كما يُعْطَى المسلمون» قال: ما لي عليهم فضل؟!. قال: «وأيُّ شيء تَبْغِي؟» قال: تَبًّا لهذا من دين، أن أكون أنا وهؤلاء سواء! فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(٢).

وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال: كان إذا وفد على النبيِّ ﷺ وفدٌ انطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله ﷺ ويقولون له: أنت أعلمُ به منا. فيقول لهم أبو لهب: إنه كَذَّاب ساحر. فيرجعون عنه ولا يَلْقَوْنه. فأتى وفد، فَفَعَل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، ونسمعَ كلامه. فقال لهم أبو لهب: إنا لم نَزَلْ نُعالجه فتَبًّا له وتَعْسًا. فأُخبِر بذلك رسول الله ﷺ، فاكتأب لذلك؛ فأنزل الله تعالى: «تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ» السورة(٣).

وقيل: إن أبا لهب أراد أن يرميَ النبي ﷺ بحجر، فمنعه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى: «تبت يدا أبي لهب وتبَّ» للمنع الذي وقع به.

ومعنى: «تَبَّتْ»: خَسِرَتْ؛ قاله قتادة. وقيل: خابت؛ قاله ابن عباس. وقيل: ضلَّت؛ قاله عطاء. وقيل: هلكت؛ قاله ابن جُبير. وقال يمان بن رِئاب: صَفِرتْ من كل خير.

حكى الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء: أنه لما قُتل عثمان رحمه الله سمع

---

(١) مسند الحميدي (٣٢٣) بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٨١ وما بعده منه، وينظر السيرة النبوية ١/ ٣٥٦.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١٤.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٦٤.

الناسُ هاتفاً يقول:

لـــقــد خَـــلَّـــوْكَ وانْـــصَـــرَفُــوا ... فـــمـــا آبُـــوا ولا رَجَـــعُـــوا

ولـــم يُـــوفُـــوا بـــنَـــذْرِهِـــمُ ... فـــيـــا تَـــبًّـــا لِـــمَـــا صَـــنَـــعُـــوا[١]

وخصَّ اليدين بالتَّباب؛ لأن العمل أكثرُ ما يكون بهما، أي: خَسِرتا وخَسِرَ هو. وقيل: المراد باليدين نَفْسه. وقد يُعبَّر عن النَّفس باليد، كما قال الله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] أي: نفسك[٢]. وهذا مَهْيَع[٣] كلامِ العرب؛ تُعبِّر ببعض الشيء عن كلِّه؛ تقول: أصابته يد الدهر، ويدُ الرزايا والمنايا، أي: أصابه كلُّ ذلك. قال الشاعر:

لَـــمَّـــا أَكَـــبَّـــتْ يَـــدُ الـــرَّزايـــا ... عـــلـــيـــهِ نـــادَى ألا مُـــجِـــيـــرُ[٤]

﴿وَتَبَّ﴾ قال الفرّاء[٥]: التبُّ الأول: دعاء، والثاني خبر؛ كما يقال: أهلكه اللهُ وقد هلك. وفي قراءة عبد الله وأبيّ: «وَقَدْ تَبَّ»[٦].

وأبو لهب اسمه عبد العُزَّى، وهو ابن عبد المطلب، عمُّ النبيّ ﷺ. وامرأتُه العوراء أمُّ جميل، أخت أبي سفيان بن حرب[٧]، وكلاهما كان شديدَ العداوة للنبيّ ﷺ.

قال طارق بن عبد الله المحاربيّ: إني بسوق ذي المَجاز، إذ أنا بإنسان يقول: «يا أيها الناس، قولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، تُفْلِحُوا»، وإذا رجلٌ خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعُرقوبيه ويقول: يا أيها الناس، إنه كذابٌ، فلا تُصدقوه. فقلت: مَن هذا؟

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤ .

(٣) طريق مهيع: واضح واسع بيِّن. اللسان (هيع).

(٤) لم نهتد إلى قائله.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٩٨ .

(٦) سلفت في أول السورة من قراءة الأعمش.

(٧) التعريف والإعلام ص ١٨٨ .

فقالوا: محمد، زعم أنه نبيٌّ. وهذا عمُّه أبو لهب يزعُم أنه كذاب[١].

وروى عطاء عن ابن عباس قال: قال أبو لهب: سَحَركم محمد، إن أحدَنا ليأكل الجَذَعة، ويشرب العُسَّ من اللبن فلا يشبع، وإن محمداً قد أشبعكم من فَخِذ شاة، وأَرواكم من عُسِّ لبن[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ قيل: سُمِّي باللَّهب لحسنه، وإشراق وجهه. وقد ظنَّ قوم أن في هذا دليلاً على تكنِية المشرك؛ وهو باطل، وإنما كَنَاه الله بأبي لهب ـ عند العلماء ـ لمعانٍ أربعة:

الأول: أنه كان اسمه عبدَ العُزَّى، والعُزَّى: صنم، ولم يُضف الله في كتابه العبودية إلى صنم.

الثاني: أنه كان بكنيته أشهرَ منه باسمه؛ فصرَّح بها.

الثالث: أن الاسم أشرفُ من الكنية، فحطَّه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذا لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يَكْنِ عن أحدٍ منهم. ويدلُّك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يُسَمَّى ولَا يُكنى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه؛ واستحالة نسبة الكُنية إليه، لتقدُّسه عنها.

الرابع: أن الله تعالى أراد أن يُحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أباً لها؛ تحقيقاً للنسب، وإمضاء للفأل والطِّيَرة التي اختارها لنفسه. وقد قيل: اسمه كُنيته. فكان أهله يُسمُّونه أبا لهب، لِتلهُّب وجهه وحسنه؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا: أبو النُّور، وأبو الضياء، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يُضيفوه إلى لَهَب الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم، وهو النار، ثم حقَّق ذلك بأن يجعلها مَقَرَّه[٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٢ ، وله شاهد من حديث ربيعة بن عِبَاد الدِّيلي عند أحمد (١٦٠٢٣).

(٢) أخرج نحوه ابن سعد في طبقاته ١/ ١٨٧ من حديث علي ﷺ. والعُسُّ: القدح الكبير. القاموس (عسس).

(٣) الكلام من أول المسألة إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٨٢ .

وقرأ مجاهد وحُميد وابن كثير وابن مُحَيْصِن: «أَبِي لَهْبٍ» بإسكان الهاء[١]. ولم يختلفوا في «ذَاتَ لَهَبٍ» أنه مفتوحة؛ لأنهم راعَوْا فيها رؤوس الآي.

الثالثة: قال ابن عباس: لمَّا خلق اللهُ عزَّ وجلَّ القلم قال له: اكتُبْ ما هو كائن، وكان فيما كتب ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[٢]. وقال منصور: سُئِلَ الحسنُ عن قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ هل كان في أم الكتاب؟ وهل كان أبو لهب يستطيع ألَّا يصلَى النار؟ فقال: والله ما كان يستطيع ألَّا يصلاها، وإنها لفي كتاب الله من قبل أن يُخْلَق أبو لهب وأبواه.

ويُؤيِّده قولُ موسى لآدم: أنت الذي خلقَكَ اللهُ بيده، ونفخَ فيك من رُوحه، وأسكنك جَنَّته، وأَسْجَدَ لك ملائكته، خَيَّبْتَ الناس، وأخْرَجتهم من الجنة. قال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك بكلامه، وأعطاك التوراة، تَلُومني على أمر كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقَ الله السماواتِ والأرضَ. قال النبيّ ﷺ: «فحجَّ آدمُ مُوسَى»، وقد تقدّم هذا[٣].

وفي حديث هَمَّام عن أبي هريرة أن آدم قال لموسى: «بِكَمْ وجدتَ اللهَ كَتَبَ التوراةَ قبلَ أنْ يَخْلُقَني»؟ قال: «بألفي عام» قال: فهل وجدتَ فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ قال: «نعم» قال: «أفتلومني على أمر كتب اللهُ عليَّ أن أفعله من قبل أن أُخلق بألفي عام». فحَجَّ آدمُ موسى[٤]. وفي حديث طاووس وابن هُرْمز والأعرج عن أبي هريرة: «بأربعين عاماً»[٥].

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٧٠٠ ، والتيسير ص ٢٢٥ ، وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٤ .

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٤/ ٢٠٥ .

(٣) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢)، بنحوه، وسلف ١٤/ ١٥٣ ، وينظر ما بعده.

(٤) لم نقف على قوله: «بألفي عام» من حديث أبي هريرة ﷺ، وقد أخرجه ابن النجار في تاريخه - كما في الدر المنثور ١/ ٥٥ - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما - والذي في صحيح مسلم (٢٦٥٢): «أربعين سنة» كما سيأتي بعده.

(٥) حديث طاووس عند أحمد (٧٣٨٧)، والبخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢): (١٣)، وحديث ابن هرمز والأعرج عند مسلم (٢٦٥٢): (١٥). وسلف ٥/ ٣٧٥ .

قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾

أي: ما دَفعَ عنه عذابَ الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه. وقال مجاهد: من الولد[1]؛ ووَلد الرجل مِن كَسْبه. وقرأ الأعمش: «وَمَا اكْتَسَبَ» ورواه عن ابن مسعود[2].

وقال أبو الطُّفَيل: جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس، فاقتتلوا، فقام لِيحْجُزَ بينهم، فدفعه بعضهم، فوقع على الفِراش، فغضب ابن عباس، وقال: أَخرجوا عني الكَسْبَ الخبيثَ[3]؛ يعني ولَدَه.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجلُ مِن كَسْبه، وإنَّ ولدَه من كَسْبه». خرّجه أبو داود[4].

وقال ابن عباس: لَمَّا أنذر رسولُ الله ﷺ عشيرتَه بالنار، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابنُ أخي حقًّا فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، فنزل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[5].

و«ما» في قوله: «مَا أَغْنَى»: يجوز أن تكون نفيًا، ويجوز أن تكون استفهامًا؛ أي: أيُّ شيء أغنى؟ و«ما» الثانية: يجوز أن تكون بمعنى الذي، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، أي: ما أغنى عنه مالُه وكَسْبه[6].

قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾

أي: ذات اشتعال وتلهُّب. وقد مضى في سورة «المرسلات» القولُ فيه[7].

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٧٩٣.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧.
(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١٧.
(٤) في سننه (٣٥٢٨)، وأخرجه أحمد (٢٤٠٣٢).
(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٤٣ عن ابن مسعود ﷺ.
(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٥١.
(٧) ٢١/ ٥٠٨.

وقراءة العامة: «سَيَصْلَى» بفتح الياء. وقرأ أبو رجاء والأعمش: بضم الياء. ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير، وحسين عن أبي بكر عن عاصم[(١)]، ورُويت عن الحسن. وقرأ أشهب العُقَيلي وأبو سَمَّال العَدَويّ ومحمد بن السَّمَيْفع: «سَيُصَلَّى» بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام[(٢)]؛ ومعناها: سَيُصَلِّيه الله؛ من قوله: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤]. والثانية من الإصلاء؛ أي: يُصليه الله؛ من قوله: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٣٠]. والأُولَى هي الاختيار؛ لإجماع الناس عليها؛ وهي من قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ أم جميل. وقال ابن العربيّ[(٣)]: العوراء أم قبيح، وكانت عَوْراء. ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدِّي: كانت تمشي بالنميمة بين الناس[(٤)]؛ تقول العرب: فلان يَحْطِب على فلان: إذا وَرَّشَ عليه[(٥)]. قال الشاعر:

إن بني الأَدْرَمِ حَمَّالو الحَطَبْ ... هم الوُشاةُ في الرِّضا وفي الغَضَبْ
عَليهِمُ اللَّعنَةُ تَتْرَى والحَرَبْ[(٦)]

وقال آخر:

مِنَ البِيضِ لم تُصْطَدْ على ظَهْرِ لَأمةٍ ... ولم تَمْشِ بين الحيّ بالحَطَبِ الرَّطْبِ[(٧)]

---

(١) وهي غير المشهورة عن ابن كثير وعاصم.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٨٢ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٢٠ عن عكرمة ومجاهد وقتادة.

(٥) التوريش: التحريش، وهو الإغراء بين القوم. وتهييج بعضهم على بعض. ينظر اللسان (ورش) و(حرش).

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٦٧ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٣٦٧ ، والكشاف ٤/ ٢٩٧ .

يعني: لم تمشِ بالنمائم، وجعل الحطب رَطْباً لِيدلَّ على التدخين، الذي هو زيادة في الشرّ. وقال أكثم بن صَيْفِي لِبنيه: إيَّاكُمْ والنَّميمةَ، فإنها نارٌ مُحْرِقَة، وإنّ النمَّام ليَعْمل في ساعة ما لا يَعْمَلُ الساحر في شهر(١). أخذه بعضُ الشعراء فقال:

إنَّ النميمةَ نارٌ وَيْك مُحْرِقَةٌ فَفِرَّ عنها وجانبْ مَنْ تَعاطاها(٢)

ولذلك قيل: نارُ الحقد لا تخبو. وثَبَتَ عن النبيّ صَلَّى الله عليه وسلم: «لا يَدْخُلُ الجنةَ نَمَّام»(٣). وقال: «ذُو الوَجْهَين لا يكون عند الله وجيهاً»(٤). وقال عليه الصلاة والسلام: «مِنْ شَرِّ الناسِ ذُو الوَجْهَين: الذي يَأتِي هؤلاءِ بوَجْهٍ، وهؤلاءِ بوَجْهٍ»(٥).

وقال كعب الأحبار: أصاب بني إسرائيل قحطٌ، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاثَ مرات يَسْتَسْقُون فلم يُسْقَوا. فقال موسى: «إلهي عبادُكَ» فأوحى الله إليه: «إني لا أَستجيب لك ولا لمن معك، لأن فيهم رجلاً نمَّاماً، قد أَصَرَّ على النميمة». فقال موسى: «يا رَبِّ مَن هو حتى نُخرجه من بيننا»؟ فقال: «يا موسى، أَنهاكَ عن النميمةِ وأكون نمَّاماً» قال: فتابوا بأجمعهم، فَسُقوا(٦).

والنميمة من الكبائر، لا خلاف في ذلك؛ حتى قال الفُضَيل بن عِياض: ثلاثٌ تهدُّ العملَ الصالح، ويفطرن الصائم، وَينقُضْن الوضوء: الغِيبة، والنميمة، والكذب.

وقال عطاء بن السائب: ذكرت للشعبيّ قولَ النبيّ ﷺ: «لا يسكنُ مكةَ(٧) سافكُ دمٍ، ولا مشَّاء بنميمة، ولا تاجرٌ يُرْبي» فقلت: يا أبا عمرو، قَرَن النمَّام بالقاتل وآكلِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٧٠ ، والبيهقي في الشعب (١١١١٤) من قول يحيى بن أبي كثير بلفظ: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٣٢٥)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ، وسلف ١٨/ ٣٣٢ .

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وينظر الحديث التالي.

(٥) أخرجه أحمد (٩٩٩٧)، والبخاري (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦) ص ٢٠١١ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) في (د) و(م): لا يدخل الجنة.

الربا؟ فقال: وهل تُسفك الدماء، وتُنتَهَبُ الأموال، وتهيج الأمور العِظام، إلا من أجل النميمة[١].

وقال قتادة وغيره: كانت تُعَيِّر رسولَ الله ﷺ بالفقر. ثم كانت مع كَثْرة مالها تحمل الحطب على ظهرها؛ لِشدَّة بُخلها، فُعيِّرَتْ بالبخل[٢]. وقال ابن زيد والضحاك: كانت تحمل العِضاه والشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ وقاله ابن عباس. قال الربيع: فكان النبيِّ ﷺ يَطَؤه كما يطأُ الحرير.

وقال مُرَّة الهَمْدَانيّ: كانت أمُّ جميل تأتي كل يوم بإبالة من الحَسَك[٣]، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذاتَ يوم حُزْمةً أَعْيَتْ، فقعدت على حجر لِتستريح، فجذبها المَلَكَ من خلفها فأهلكها. وقال سعيد بن جُبير: حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾[٤].

وقيل: المعنى: حمالة الحطب في النار؛ وفيه بُعْد.

وقراءة العامة: «حَمَّالَةُ» بالرفع، على أن يكون خبراً «وامرأته» مبتدأ. ويكون «في جِيدِها حبلٌ من مَسَد» جملةً في موضع الحال من المضمر في «حَمالة». أو خبراً ثانياً. أو يكون «حمالة الحطب» نعتاً لامرأته. والخبر «في جيدِها حبْلٌ مِنْ مَسَد»، فيوقف على هذا على «ذات لهبٍ». ويجوز أن يكون «وامرأَتُهُ» معطوفة على المضمر في «سيصلى» فلا يُوقف على ذات لهب ويُوقف على «وامرأته» وتكون «حَمَّالة الحَطَبِ» خبر ابتداء محذوف[٥].

---

(١) أخرج المرفوع منه هناد في الزهد (١٢١٠) وعبد الرزاق في المصنف (٩٢٢٤) عن عبد الرحمن بن سابط مرسلاً، وأخرج قصة عطاء والشعبي هناد (١٢١١).

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٦٧ بنحوه.

(٣) الإبالة: الحزمة. اللسان (أبل)، والحسك: جمع حسكة، وهي شوكة صلبة. النهاية (حسك).

(٤) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٥٤٣ - ٥٤٤ بنحوها ما عدا قول الربيع، وقول مرة الهمداني نسبه للضحاك.

(٥) الكلام بنحوه في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٩٠، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣٠٦.

وقرأ عاصم: «حمالةَ الحَطَب» بالنصب على الذم[١]، كأنها اشتَهَرَتْ بذلك، فجاءت الصِّفة للذم لا للتخصيص، كقوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾. وقرأ أبو قِلابة: ﴿حامِلة الحَطَب﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: عُنُقِها. وقال امرؤُ القيس:

وجِيدٍ كجيدِ الرِّيمِ ليس بفاحشٍ ... إذا هي نَصَّتهُ ولا بِمُعَطَّلِ[٣]

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ أي: من لِيف؛ قال النابغة:

مُقْذُوفَةٍ بدَخِيس النَّحْض بازِلُها ... له صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْوِ بالمَسَدِ[٤]

وقال آخر:

يا مَسَدَ الخُوص تَعَوَّذْ مِنِّي ... إنْ كُنْتُ لَدْناً لَيِّناً فإنِّي

ما شِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَئِنِّ[٥]

وقد يكون من جلود الإبل، أو من أوبارها؛ قال الشاعر:

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أيانِقِ ... ليس بِأَنْيَابٍ ولَا حَقَائِقِ[٦]

---

(١) السبعة ص٧٠٠، والتيسير ص٢٢٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٨٧.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ١٦. وسلف صدره ٣/ ١٤، والبيت من معلقته المشهورة، وقال شارح الديوان: قوله: نصَّته: مدَّته وأبرزته. والمعطَّل: الذي لا حلي عليه.

(٤) ديوان النابغة ص ٣١، قال النحاس في شرح المعلقات ٢/ ١٦١: المقذوفة: المَرْميّة، يصف شدَّتها واكتنازها، أي: هي مرميَّة باللحم، والدخيس: الذي قد دخل بعضه في بعض من كثرته واكتنازه، والنحض: اللحم، والبازل: الكبير، والصريف: الصياح، والقَعْو: ما يَضُمُّ البكرة إذا كان خشباً.

(٥) الرجز في إصلاح النطق ص ٥٩، والصحاح (مسد). المقسئن: الكهل الشديد الذي لم تَنْقُص السنُّ منه شيئاً. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص١٥٥ و١٥٧.

(٦) الرجز في الصحاح (مسد)، واللسان (مسد). وفيه: ومسد فُتل من أيانق: جمع أَيْنُق، وأَيْنُق جمع ناقة، والأنياب، جمع ناب، وهي الهرمة، والحقائق جمع حُقَّة، وهي التي دخلت في السنة الرابعة. والرجز أنشده الأصمعي لعمارة بن طارق، وقال أبو عُبيد: هو لعقبة الهُجيمي، كما في اللسان.

وجمع الجيد أجياد، والمسد أمساد. أبو عُبيدة: هو حَبْل يكون من ضروب[١]. قال الحسن: هي حبال من شجر تَنبتُ باليمن تُسمَّى المَسَد، وكانت تُفْتل. قال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا؛ فكانت تُعَيِّرُ النبيَّ ﷺ بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف، فخنقها اللهُ جلّ وعزَّ به فأهلكها، وهو في الآخرة حَبْل من نار[٢].

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «في جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ» قال: سِلسلة ذَرْعُها سبعون ذراعاً؛ وقاله مجاهد وعروة بن الزبير: تَدْخُل مِنْ فيها، وتَخْرُج من أسفلها، ويُلْوَى سائرُها على عُنقها. وقال قتادة: «حَبْلٌ مِن مَسَدٍ» قال: قِلادة من وَدَع[٣]. الوَدَع: خرز بيضٌ تخرج من البحر، تتفاوت في الصِّغَرِ والكِبَر. قال الشاعر:

والحِلم حِلْمُ صَبِيٍّ يَمْرِث الوَدَعَهْ[٤]

والجمع: وَدَعات: الحسن: إنما كان خَرَزاً في عُنقها. سعيد بن المسيَّب: كانت لها قِلادة فاخرةٌ من جوهر، فقالت: واللّاتِ والعُزَّى لأُنفِقنَّها في عداوة محمد، ويكون ذلك عذاباً في جيدها يومَ القيامة. وقيل: إن ذلك إشارةٌ إلى الخِذْلان، يعني أنها مربوطةٌ عن الإيمان بما سبق لها من الشَّقاء، كالمربوط في جيده بحبل من مسد[٥].

والمَسْد: الفَتْل. يقال: مَسَد حَبْلَه يَمْسُده مَسْدًا، أي: أجاد فَتْلَه. قال:

يَمْسُد أعْلَى لحمِهِ ويأرِمُهْ

يقول: إن البقل يُقوِّي ظهرَ هذا الحمار ويشده[٦].

---

(١) في (م): صوف، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في مجاز القرآن ٢/ ٣١٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٤٤ بنحوه، وقول الحسن نسبه لابن زيد.

(٣) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٧٢٣ - ٧٢٥، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤٤.

(٤) الصحاح (ودع).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٦٨، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤٤.

(٦) الصحاح (مسد)، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص ١٨٦.

ودابة مَمْسودة الخَلْق: إذا كانت شديدةَ الأَسْر. قال الشاعر:

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ صُهْبٍ عِتَاقٍ ذاتِ مُخٍّ زاهِقِ
لَسْنَ بأنيابٍ ولَا حَقَائِقِ(١)

ويروى:

ولا ضعافٍ مُخُّهُنَّ زاهِقِ(٢)

قال الفراء: هو مرفوع والشعر مُكْفأ(٣). يقول: بل مُخُّهُنَّ مُكتنِز؛ رفعه على الابتداء. قال: ولا يجوز أن يريد: ولا ضعافٍ زاهقٍ مخهنّ. كما لا يجوز أن تقول: مررتُ برجل أبوه قائمٍ؛ بالخفض. وقال غيره: الزاهق هنا: بمعنى الذاهب؛ كأنه قال: ولا ضعافٍ مُخُّهُنَّ، ثم ردَّ الزاهق على الضِّعاف.

ورجل ممسود: أي: مجدول الخَلْق. وجارية حسنة المَسْد والعَصْبِ والجَدْلِ والأَرْم؛ وهي ممسودةٌ ومعصوبة ومجدولة ومأرومة. والمِساد على فِعال: لغة في المِسَاب، وهي نِحْيُ السَّمن، وسِقاءُ العسل. قال جميعه الجوهريّ(٤).

وقد اعْتُرِض فقيل: إن كان ذلك حبلَها الذي تحتطب به، فكيفَ يبقى في النار؟ وأُجيب عنه بأن الله عزَّ وجلَّ قادرٌ على تجديده كلما احترق.

والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروطٌ ببقائهما على الكفر إلى الموافاة، فلما ماتا على الكفر صدق الإخبارُ عنهما. ففيه معجزةٌ للنبي ﷺ. فامرأته خنقها الله بحبلها، وأبو لهب رماه الله بالعَدَسة(٥) بعد وقعة بدر بسبع ليال، بعد أن

---

(١) سلف الرجز قريباً.

(٢) ذكرها الجوهري في الصحاح (زهق)، وما بعده منه.

(٣) الإكفاء في الشعر: هو اختلاف حرف الرَّوي في قصيدة واحدة، وأكثر ما يقع ذلك في الحروف المتقاربة المخارج. الكافي في العروض والقوافي للتبريزي ص ١٦١ .

(٤) في الصحاح (مسد).

(٥) العدسة: هي بثرة تشبه العدسة، تخرج في مواضع من الجسد، من جنس الطاعون. النهاية (عدس).

شَجَّته أمُّ الفضل[١]. وذلك أنه لما قَدِمَ الحَيْسُمَانُ مكةَ يُخبر خبرَ بدر، قال له أبو لهب: أَخْبرني خبرَ الناس. قال: نعم، والله ما هو إلا أن لَقِينا القومَ، فمنحناهم أكتافَنا، يضعون السلاح منا حيث شاؤوا، ومع ذلك ما لَمَسْتُ الناس. لقِينا رجالاً بِيضًا على خيل بُلْق، لا والله ما تُبْقي منا؛ يقول: ما تُبْقي شيئاً. قال أبو رافع: وكنتُ غلاماً للعباس أنحِت الأقداح في صُفَّةِ زمزم، وعندي أمّ الفضل جالسة، وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، فرفعتُ طُنُبَ الحُجرة، فقلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضَرْبةً مُنْكرة، وثَاوَرْتُهُ، وكنت رجلاً ضعيفاً، فاحتملني، فضرب بي الأرض، وبَرَك على صدري يَضْربني. وتقدَّمت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحُجْرة، فتأخذه وتقول: استضعَفتَه أن غاب عنه سيده؟ وتضربه بالعمود على رأسه فتَفلِقُه شَجَّة مُنْكَرة. فقام يجرُّ رجليه ذليلاً، ورماه الله بالعَدَسة، فمات، وأقام ثلاثة أيام لم يُدفن حتى أنتن؛ ثم إن ولده غَسَّلُوه بالماء، قَذْفاً من بعيد، مخافَة عَدْوَى العَدَسة. وكانت قريشٌ تَتَّقيها كما يُتَّقَى الطاعون. ثم احتملوه إلى أعلى مكة. فأسندوه إلى جدار، ثم رضَموا عليه الحجارة[٢].

(١) هي امرأة العباس رضي الله عنهما، واسمها لبابة بنت الحارث الهلالية، وهي لبابة الكبرى. الإصابة ١٣/ ٢٦٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩١٢)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٢١ - ٣٢٢، وعندهما أن الذي جاء بخبر المشركين أبو سفيان بن الحارث.

تفسير سورة تبت

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ .

قال البخارى : حدثنا محمد بن سلام ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ،عن عمرو بن مُرّة، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرأيتم إنْ حَدثتكم أن العدوّ مُصبحكم أو مُمْسيكم ، أكنتم تصدقونى ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإنى نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، إلى آخرها [(١)] .

وفى رواية : فقام ينفض يديه ،وهو يقول : تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [(٢)].

الأول دعاء عليه ، والثانى خبر عنه . فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله [(٣)] ﷺ واسمه : عبد العُزّى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عُتبة . وإنما سمى « أبا لهب » لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له ، والازدراء به ، والتنقص له ولدينه .

قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن أبى العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد ، عن أبيه قال : أخبرنى رجل ــ يقال له : ربيعة بن عباد ، من بنى الديل ، وكان جاهلياً فأسلم ــ قال : رأيت النبى ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ،قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحولُ ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب[(٤)].

ثم رواه عن سُرَيج ، عن ابن أبى الزناد ، عن أبيه ، فذكره ــ قال أبو الزناد : قلت لربيعة : كنت يومئذ صغيراً ؟ قال : لا ، والله إنى يومئذ لأعقل أنى أزفر القربة . تفرد به أحمد [(٥)].

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى حُسَين بن عبد الله بن عُبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة ابن عباد الديلى يقول : إنى لمع أبى رجل شاب ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ــ ووراءه

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٢) .
(٢) صحيح البخارى برقم (١٣٩٤، ٤٨٠١، ٣٥٢٥) .
(٣) فى م : « أعمام النبى » .
(٤) المسند (٤/ ٣٤١) .
(٥) المسند (٤/ ٣٤١) .

رجل أحول وضيء ، ذو جُمَّة ـ يَقِفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تصدقونى وتمنعونى حتى أنفِّذَ عن الله ما بعثنى به » . وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بنى فلان ، هذا يريد منكم أن تسلُخوا اللات والعزى ، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أُقَيْش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبى : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب (١) .

رواه أحمد أيضا ، والطبرانى بهذا اللفظ (٢) .

فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ أى : خسرت وخابت ، وضل عمله وسعيه ، ﴿ وَتَبَّ ﴾ أى : وقد تَبَّ تحققُ خسارته وهلاكه .

وقوله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ ، قال ابن عباس وغيره : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعنى: ولده. ورُوِى عن عائشة ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وابن سيرين ، مثله .

وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إذا كان ما يقول ابن أخى حقا ، فإنى أفتدى نفسى يوم القيامة من العذاب بمالى وولدى . فأنزل الله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

وقوله : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أى : ذات شرر ولهيب وإحراق شديد ، ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ .وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهى : أم جميل ،واسمها أروى بنتُ حرب بن أمية ، وهى أخت أبى سفيان . وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ؛ فلهذا تكون يوم القيامة عَوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم . ولهذا قال : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعنى : تحمل الحطب فتلقى على زوجها، ليزداد على ما هو فيه ، وهى مُهَيَّأة لذلك مستعدة له .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ : قال مجاهد ، وعروة : من مَسد النار .

وعن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثورى ، والسدى : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾: كانت تمشى بالنميمة ، [واختاره ابن جرير] (٣) .

وقال العوفى عن ابن عباس ، وعطية الجدلى ، والضحاك ، وابن زيد : كانت تضع الشوك فى طريق رسول الله ﷺ ، واختاره ابن جرير .

قال ابن جرير : وقيل : كانت تعير النبى ﷺ بالفقر ، وكانت تحتطب ، فعيرت بذلك .

كذا حكاه ، ولم يعزه إلى أحد . والصحيح الأول ، والله أعلم .

قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها فى عداوة محمد ، يعنى : فأعقبها الله بها حبلاً فى جيدها من مسد النار .

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٢٣) .
(٢) المسند (٣/ ٤٩٢) والمعجم الكبير (٥/ ٦٣) .
(٣) زيادة من م .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وكيع ، عن سليم [(١)] مولى الشعبى ، عن الشعبى قال : المسد : الليف .

وقال عروة بن الزبير : المسد : سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً .

وعن الثورى : هى قلادة من نار ، طولها سبعون ذراعاً .

وقال الجوهرى : المَسَدُ : الليف . والمَسَد أيضا : حبل من ليف أو خوص ، وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها ، ومسدت الحبل أمسدُهُ مَسْداً : إذا أجْدتُ فَتله [(٢)] .

وقال مجاهد : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكْرة مَسَداً ؟

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى وأبو زُرْعة قالا : حدثنا عبد الله بن الزبير الحُمَيدى ، حدثنا سُفيان ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن ابن تدرس ، عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

مُذَمماً أبَيْنَا ودينَه قَلَينا وأمْرَه عَصَينا

ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن ترانى ». وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء:٤٥] . فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، إنى أخبرتُ أن صاحبك هجانى ؟ قال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . فولت وهى تقول : قد علمت قريش أنى ابنة سيدها . قال : وقال الوليد فى حديثه أو غيره : فعثَرَت أم جميل فى مِرْطها وهى تطوف بالبيت ، فقالت : تَعس مُذَمَّم . فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إنى لحصانٌ فما أكلَّم ، وثَقَافُ فما أعلَّم ، وكلنا من بنى العم ،وقريش بعد أعلم [(٣)] .

وقال الحافظ أبو بكر البزار :حدثنا إبراهيم بن سعيد وأحمد بن إسحاق قالا : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ،جاءت امرأة أبى لهب ورسول الله ﷺ جالس ، ومعه أبو بكر . فقال له أبو بكر : لو تَنَحَّيت لا تُؤذيك بشىء . فقال رسول الله ﷺ : « إنه سيُحال بينى وبينها » . فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر فقالت : يا أبا بكر، هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ، ورب هذه البنية ما نَطَق بالشعر ولا يتفوه به .فقالت : إنك لمصدق ، فلما ولت قال أبو بكر ، رضى الله عنه : ما رأتك ؟ قال : « لا ، ما زال ملك يسترنى حتى ولت » .

---

(١) فى أ : « سليمان » .

(٢) الصحاح للجوهرى ، مادة « مسد » (١/ ٥٣٥) .

(٣) مسند الحميدى (١/ ١٥٣) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١/ ٥٣) من طريق سفيان به ، وسبق تخريجه عند تفسير الآية : ٤٥ من سورة الإسراء .

ثم قال البزار : لا نعلمه يُروَى بأحسنَ من هذا الإسناد ، عن أبي بكر ، رضى الله عنه [١] .

وقد قال بعض أهل العلم فى قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : فى عنقها حبل من نار [جهنم] [٢] تُرفَع به إلى شفيرها ، ثم يرمى بها إلى أسفلها ، ثم كذلك دائما .

قال أبو الخطاب بن دَحْيَة فى كتابه التنوير [٣]ـ وقد روَى ذلك ـ : وعُبر بالمسد عن حبل الدلو، كما قال أبو حنيفة الدينورى فى كتاب « النبات » : كلّ مَسَد : رشاء ، وأنشد فى ذلك :

وبَكْرَةً ومِحْوَراً صِرَاراً وَمَسَداً مِنْ أبق مُغَاراً

قال : والأبقُ : القنَّبُ .

وقال الآخر :

يا مَسَدَ الخُوص تَعَوّذْ منى إنْ تَكُ لَدْناً لَيّنا فإنى
ما شئتَ مِنْ أشْمَطَ مُقْسَئِنّ

قال العلماء : وفى هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً ، لا مسراً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة .

[آخر تفسير « تبت » ولله الحمد والمنة] [٤]

(١) مسند البزار برقم (٢٢٩٤) « كشف الأستار » ، ورواه أبو يعلى فى مسنده (١/ ٣٣) من طريق عبد السلام بن حرب به ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٤٤) : « فيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .
(٢) زيادة من م ، أ .
(٣) التنوير فى مولد السراج المنير لابن دحية الكلبى ، عمله لملك إربل . انظر : وفيات الأعيان (٣/ ١٢٢) .
(٤) زيادة من م ، أ .

١١١ – سورة المسد
(مكية وهى خمس آيات)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ١١١ المسد

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ (٢) ١١١ المسد

﴿ سورة المسد مكية وآيها خمس ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (تبت) أى هلكت (يدا أبى لهب) هو عبد العزى بن عبد المطلب وإيثار التباب على الهلاك وإسناده إلى يديه لما روى لما نزل وأنذر عشيرتك الأقربين رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا وجمع أقاربه فأنذرهم فقال أبو لهب تباً لك ألهذا دعوتنا وأخذ حجراً ليرميه عليه السلام به (وتب) أى وهلك كله وقيل المراد بالأول هلاك جملته كقوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ومعنى وتب وكان ذلك وحصل كقول من قال [جزانى جزاه الله شر جزائه * جزاء الكلاب العاويات وقد فعل] ويؤيده قراءة من قرأ وقد تب وقيل الأول إخبار عن هلاك عمله لأن الأعمال تزاول غالباً بالأيدى والثانى إخبار عن هلاك نفسه وقيل كلاهما دعاء عليه بالهلاك وقيل الأول دعاء والثانى إخبار وذكر كنيته للتعريض بكونه جهنمياً ولاشتهاره بها ولكراهة ذكر اسمه

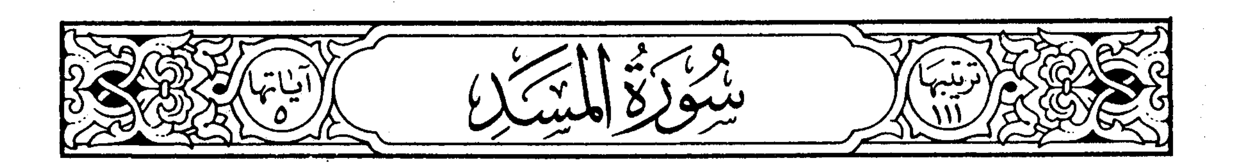
٢ القبيح وقرىء أبو لهب كما قيل على بن أبو طالب وقرىء أبى لهب بسكون الهاء (ما أغنى عنه ماله وما كسب) أى لم يغن عنه حين حل به التباب على أن ما نافية أو أى شىء أغنى عنه على أنها استفهامية فى معنى الإنكار منصوبة بما بعدها أصل ماله وما كسبه من الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والأتباع أو ماله الموروث من أبيه والذى كسبه بنفسه أو عمله الخبيث الذى هو كيده فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم أو عمله الذى ظن أنه منه على شىء كقوله تعالى وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما كسب ولده وروى أنه كان يقول إن كان مايقول ابن أخى حقاً فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وولدى فأستخلص منه وقد خاب مرجاه وما حصل ماتمناه فافترس ولده عتبة أسد فى طريق الشام بين العير المكتنفة به وقد كان عليه السلام دعا عليه وقال اللهم سلط عليه كلباً من كلابك وهلك نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال فاجتنبه أهله مخافة العدوى وكانت قريش تتقيها كالطاعون فبقى ثلاثاً حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه فكان

سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ١١١ المسد

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ ١١١ المسد

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ١١١ المسد

٣ الأمر كما أخبر به القرآن (سيصلى) بفتح الياء وقرىء بضمها وفتح اللام بالتخفيف والتشديد والسين
* لتأكيد الوعيد وتشديده أى سيدخل لامحالة بعد هذا العذاب العاجل فى الآخرة (ناراً ذات لهب)
أى ناراً عظيمة ذات اشتعال وتوقد وهى نار جهنم وليس هذا نصاً فى أنه لا يؤمن أبداً حتى يلزم من
تكليفه الإيمان بالقرآن أن يكون مكلفاً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن أبداً فيكون مأموراً بالجمع بين النقيضين
كما هو المشهور فإن صلى النار غير مختص بالكفار فيجوز أن يفهم أبو لهب من هذا أن دخوله النار
لفسقه ومعاصيه لا لكفره فلا اضطرار إلى الجواب المشهور من أن ما كلفه هو الإيمان بجميع ما جاء
به النبى صلى الله عليه وسلم إجمالا لا الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلف الإيمان
٤ بعدم إيمانه المستمر (وامرأته) عطف على المستكن فى سيصلى لمكان الفصل بالمفعول وهى أم جميل
بنت حرب أخت أبى سفيان وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل فى طريق
النبى صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير وقيل كانت تمشى بالنميمة ويقال
* لمن يمشى بالنمائم ويفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم أى يوقد بينهم النار (حمالة الحطب) بالنصب
على الشتم والذم وقيل على الحالية بناء على أن الإضافة غير حقيقية إذ المراد أنها تحمل يوم القيامة
حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع وعن قتادة أنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها
لشدة بخلها فعيرت بالبخل فالنصب حينئذ على الشتم حتما وقرىء بالرفع على أنه خبر وامرأته مبتدأ
٥ وقرىء حمالة للحطب بالتنوين نصباً ورفعاً وقرىء مريته بالتصغير للتحقير (فى جيدها حبل من مسد)
جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة حالية وقيل الظرف خبر لامرأته وحبل مرتفع به على الفاعلية
وقيل هو حال من امرأته على تقدير عطفها على ضمير سيصلى وحبل فاعل كما ذكر والمسد ما يفتل من
الحبال فتلا شديداً من ليف المقل وقيل من أى ليف كان وقيل من لحاء شجر باليمن وقد يكون من
جلود الإبل وأوبارها والمعنى فى عنقها حبل مما مسد من الحبل وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك
وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابون تخسيساً بحالها وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن
لتمتعض من ذلك ويتمعض بعلها وهما فى بيت العز والشرف قال مرة الهمدانى كانت أم جميل تأتى كل
يوم بإبالة من حسك فتطرحها على طريق المسلمين فبينا هى ذات ليلة حاملة حزمة أعيت فقعدت على
حجر لتستريح فجذبها الملك من خلفها فاختنقت بحبلها . عن النبى صلى الله عليه من قرأ سورة المسد
تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبى لهب فى دار واحدة .



وتسمى سورة المسد، وهي مكية وآيها خمس بلا خلاف في الأمرين. ولما ذكر سبحانه فيما قبل دخول الناس في ملة الإسلام عقبه سبحانه بذكر هلاك بعض ممن لم يدخل فيها وخسرانه.

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

كذا قيل في وجه الاتصال، وقيل هو من اتصال الوعيد بالوعد وفي كل مسرة له عليه الصلاة والسلام وقال الإمام في ذلك إنه تعالى لما قال ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ [الكافرون: ٦] فكأنه ﷺ قال: «إلهي فما جزائي» فقال الله تعالى: لك النصر والفتح فقال: «فما جزاء عمي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام» فقال: تبت يداه. وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر متصلاً بقوله تعالى ﴿ولي دين﴾ والوعيد راجعاً إلى قوله تعالى ﴿لكم دينكم﴾ على حد ﴿يوم تبيض وجوه﴾ [آل عمران: ١٠٦] الآية. فتأمل هذه المجانسة الحاصلة بين هذه السور مع أن سورة النصر من آخر ما نزل بالمدينة، وتبت من أوائل ما نزل بمكة لتعلم أن ترتيبها من الله تعالى وبأمره عز وجل ثم قال: ووجه آخر وهو أنه لما قال ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ فكأنه قيل: إلهي ما جزاء المطيع؟ قال: حصول النصر والفتح. ثم قيل: فما جزاء العاصي؟ قال: الخسار في الدنيا والعقاب في العقبى كما دلت عليه سورة تبت انتهى وهو كما ترى.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾
وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * تَبَّتْ﴾ أي هلكت كما قال ابن جبير وغيره ومنه قولهم أشابة أم تابة يريدون أم هالكة من الهرم والتعجيز أي خسرت كما قال ابن عباس وابن عمر وقتادة، وعن الأول أيضاً خابت، وعن يمان بن وثاب صفرت من كل خير وهي على ما في البحر أقوال متقاربة. وقال الشهاب: إن مادة التباب تدور على القطع وهو مؤد إلى الهلاك ولذا فسر به. وقال الراغب: هو الاستمرار في الخسران ولتضمنه الاستمرار قيل استتب لفلان كذا أي استمر ويرجع هذا المعنى إلى الهلاك ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ هو عبد العزّى بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان شديد المعاداة والمناصبة له عليه الصلاة والسلام ومن ذلك ما في

المجمع عن طارق المحاربي قال: بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا برجل حديث السن يقول: أيها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا، وإذا رجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد ﷺ يزعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب وأخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر يا بني عدي» لبطنون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي»؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلاّ صدقاً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر الأيام ألهذا جمعتنا؟ فنزلت. ويروى أنه مع ذلك القول أخذ بيديه حجراً ليرمي بها رسول الله ﷺ ومن هذا يعلم وجه إيثار التباب على الهلاك ونحوه مما تقدم وإسناده إلى يديه وكذا مما روى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس أيضاً أن أبا لهب قال لما خرج من الشعب وظاهر قريشاً: إن محمداً يعدنا أشياء لا نراها كائنة يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يديه ثم نفخ في يديه ثم قال تباً لكما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد ﷺ فنزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾ ومما روي عن طارق يعلم وجه الثاني فقط فاليدان على المعنى المعروف والكلام دعاء بهلاكهما. وقوله سبحانه ﴿**وَتَبَّ**﴾ دعاء بهلاك كله وجوز أن يكونا إخبارين بهلاك ذينك الأمرين والتعبير بالماضي في الموضعين لتحقق الوقوع. وقال الفرّاء: الأول دعاء بهلاك جملته على أن اليدين إما كناية عن الذات والنفس لما بينهما من اللزوم في الجملة، أو مجاز من إطلاق الجزء على الكل كما قال محيي السنة والقول في رده أنه يشترط أن يكون الكل يعدم بعدمه كالرأس والرقبة واليد ليست كذلك غير مسلم لتصريح فحول بخلافه هنا، وفي قوله تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥] أو المراد على ما قيل بذلك الشرط يعدم حقيقة أو حكماً كما في إطلاق العين على الربيئة واليد على المعطي أو المتعاطي لبعض الأفعال فإن الذات من حيث اتصافها بما قصد اتصافها به تعدم يعدم ذلك العضو، والثاني إخبار بالحصول أي وكان ذلك وحصل كقول النابغة:

جزاني جزاه الله شر جزائه ... جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

واستظهر أن هذه الجملة حالية وقد مقدرة على المشهور كما قرأ به ابن مسعود. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس في سبب النزول فنزلت هذه السورة «تبت يدا أبي لهب وقد تب» وعلى هذه القراءة يمتنع أن يكون ذلك دعاء لأن «قد» لا تدخل على أفعال الدعاء. وقيل: الأول إخبار عن هلاك عمله حيث لم يفده ولم ينفعه لأن الأعمال تزاول بالأيدي غالباً. والثاني إخبار عن هلاك نفسه. وفي التأويلات اليد بمعنى النعمة وكان يحسن إلى النبي ﷺ وإلى قريش ويقول إن كان الأمر لمحمد فلي عنده يد، وإن كان لقريش فكذلك، فأخبر أنه خسرت يده التي كانت عند النبيّ ﷺ بعناده له ويده التي عند قريش أيضاً بخسران قريش وهلاكهم في يد النبي عليه الصلاة والسلام فهذا معنى ﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾ والمراد بالثاني الإخبار بهلاكه نفسه وذكر بكنيته لاشتهاره بها وقد أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له وذكره بأشهر علميه أوفق بذلك. ويؤيد ذلك قراءة من قرأ «يدا أبو لهب» كما قيل عليّ بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان لئلا يغير منه شيء فيشكل على السامع، أو لكراهة ذكر اسمه القبيح أو لأنه كما روي عن مقاتل كان يكنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما فذكر بذلك تهكماً به وبافتخاره بذلك، أو لتجانس ذات لهب ويوافقه لفظاً ومعنى.

والقول بأنه ليس بتجنيس لفظي لأنه ليس في الفاصلة وهم فإنهم لم يشترطوه فيه أو لجعله كناية عن الجهنمي فكأنه قيل: تبت يدا جهنمي، وذلك لأن انتسابه إلى اللهب كانتساب الأب إلى الولد يدل على ملابسته له وملازمته إياه كما يقال: هو أبو الخير وأبو الشر وأخو الفضل وأخو الحرب لمن يلابس هذه الأمور ويلازمها، وملازمته لذلك تستلزم كونه جهنمياً لزماً عرفياً فإن اللهب الحقيقي هو لهب جهنم، فالانتقال من أبي لهب إلى جهنمي انتقال من الملزوم إلى اللازم أو بالعكس على اختلاف الرأيين في الكناية فإن التلازم بينهما في الجملة متحقق في الخارج والذهن إلاّ أن هذا اللزوم إنما هو بحسب الوضع الأول أعني الإضافي دون الثاني أعني العلمي، وهم يعتبرون في الكنى المعاني الأصلية. فأبو لهب باعتبار الوضع العلمي مستعمل في الشخص المعين وينتقل منه باعتبار وضعه الأصلي إلى ملابس اللهب وملازمه لينتقل منه إلى أنه جهنمي فهو كناية عن الصفة بالواسطة وهذا ما اختاره العلامة الثاني فعنده كناية بلا واسطة لأن معناه الأصلي أعني ملابس اللهب ملحوظ مع معناه العلمي وأحق مع العلامة لأن أبا لهب يستعمل في الشخص المعين والمتكلم بناء على اعتبارهم المعاني الأصلية في الكنى ينتقل منه إلى المعنى الأصلي ثم ينتقل منه إلى الجهنمي ولا يلاحظ معه معناه الأصلي وإلاّ لكان لفظ أبي لهب في الآية مجازاً سواء لوحظ معه معناه الأصلي بطريق الجزئية أو التقييد لكونه غير موضوع للمجموع، وما قيل إن المعنى الحقيقي لا يكون مقصوداً في الكناية وأن مناط الفائدة والصدق والكذب فيها هو المعنى الثاني. وها هنا قصد الذات المعين فليس بشيء لأن الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه فيجوز ها هنا أن يكون كلا المعنيين مراداً. وفي المفتاح تصريح بأن المراد في الكناية هو المعنى الحقيقي ولازمه جميعاً وزعم السيد أيضاً أن الكناية في أبي لهب لأنه اشتهر بهذا الاسم وبكونه جهنمياً فدل اسمه على كونه جهنمياً دلالة حاتم على أنه جواد فإذا أطلق وقصد به الانتقال إلى هذا المعنى يكون كناية عنه، وفيه أنه يلزم منه أن تكون الكناية في مثله موقوفة على اشتهار الشخص بذلك العلم وليس كذلك فإنهم ينتقلون من الكنية إلى ما يلزم مسماها باعتبار الأصل من غير توقف على الشهرة قال الشاعر:

قصدت أنا المحاسن كي أراه ... لشوق كاد يجذبني إليه

فلما أن رأيت رأيت فرداً ... ولم أر من بنيه ابناً لديه

على أن فيه بعدما فيه. وقرأ ابن محيصن وابن كثير «أبي لَهْب» بسكون الهاء وهو من تغيير الاعلام على ما في الكشاف. وقال أبو البقاء: الفتح والسكون لغتان وهو قياس على المذهب الكوفي ﴿مَا أَغْنَى عَنهُ مَالُهُ﴾ أي لم يغن عنه ماله حين حل به التباب على أن ما نافية، ويجوز أن تكون استفهامية في محل نصب بما بعدها على أنها مفعول به أو مفعول مطلق أي أي إغناء أو أي شيء أغنى عنه ماله ﴿وما كَسَبَ﴾ أي والذي كسبه على أن ﴿ما﴾ موصولة، وجوز أن تكون مصدرية أي وكسبه وقال أبو حيان: إذا كان ﴿ما﴾ الأولى استفهامية فيجوز أن تكون هذه كذلك أي وأي شيء كسب أي لم يكسب شيئاً. وقال عصام الدين: يحتمل أن تكون نافية، والمعنى ما أغنى عنه ماله مضرة وما كسب منفعة، وظاهره أنه جعل فاعل ﴿كسب﴾ ضمير المال وهو كما ترى. واستظهر في البحر موصوليتها فالعائد محذوف أي ولذي كسبه به من الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والاتباع، أو ما أغنى عنه ماله الموروث من أبيه والذي كسبه بنفسه أو ماله والذي كسبه من عمله الخبيث الذي هو كيده في عداوة النبيّ ﷺ كما قال الضحاك، أو من عمله الذي يظن أنه منه على

شيء كقوله تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ [الفرقان: ٢٣] كما قال قتادة، وعن ابن عباس ومجاهد ما كسب من الولد أخرج أبو داود عن عائشة مرفوعاً: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه» وروي أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي وكان له ثلاثة أبناء عتبة ومعتب وقد أسلما يوم الفتح، وسرّ النبي عليه الصلاة والسلام بإسلامهما ودعا لهما، وشهدا حنيناً والطائف وعتيبة بالتصغير ولم يسلم. وفي ذلك يقول صاحب كتاب الألباء:

كرهت عتيبة إذ أجرما — وأحببت عتبة إذ أسلما
كذا معتب مسلم فاحترز — وخف أن تسب فتى مسلما

وكانت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ عند عتيبة ورقية أختها عند أخيه عتبة، فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد ﷺ فطلقاهما إلا أن عتيبة المصغر كان قد أراد الخروج إلى الشام مع أبيه فقال: لآتين محمداً عليه الصلاة والسلام وأوذينه فأتاه فقال: يا محمد إني كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى، ثم تفل تجاه رسول الله ﷺ ولم يصبه عليه الصلاة والسلام شيء وطلق ابنته أم كلثوم فأغضبه عليه الصلاة والسلام بما قال وفعل. فقال ﷺ: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك». وكان أبو طالب حاضراً فكره ذلك وقال له: ما أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة. فرجع إلى أبيه ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً فأشرف عليهم راهب من دير وقال لهم: إن هذه أرض مسبعة فقال أبو لهب: أغيثوني يا معشر قريش في هذه الليلة فإني أخاف على ابني دعوة محمد ﷺ فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم خوفاً من الأسد، فجاء أسد يتشمم وجوههم حتى أتى عتيبة فقتله وفي ذلك يقول حسان:

من يرجع العام إلى أهله — فما أكيل السبع بالراجع

وهلك أبو لهب نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال فاجتنبه أهله مخافة العدوي وكانت قريش تتقيها كالطاعون، فبقي ثلاثاً حتى أنتن فلما خافوا العار استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه، وفي رواية حفروا له حفرة ودفعوه بعود حتى وقع فيها فقذفوه بالحجارة حتى واروه وفي أخرى أنهم لم يحفروا له وإنما أسندوه لحائط وقذفوا عليه الحجارة من خلفه حتى توارى فكان الأمر كما أخبر به القرآن. وقرأ عبد الله «وما اكتسب» بناء الافتعال ﴿سَيَصْلَى ناراً﴾ سيدخلها لا محالة في الآخرة ويقاسي حرها والسين لتأكيد الوعيد والتنوين للتعظيم أي ناراً عظيمة ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات اشتعال وتوقد عظيم وهي نار جهنم، وجملة ﴿ما أغنى﴾ الخ قال في الكشف: استئناف جواباً عما كان يقول أنا أفتدي بمالي، ويتوهم من صدقه وفيه تحسير له وتهكم بما كان يفتخر به من المال والبنين، وهذه الجملة تصوير للهلاك بما يظهر معه عدم إغناء المال والولد وهو ظاهر على تفسير ما كسب بالولد. وقال بعض الأفاضل: الأولى إشارة لهلاك عمله وهذه إشارة لهلاك نفسه، وهو أيضاً على بعض الأوجه السابقة فتذكر ولا تغفل. وقوله تعالى ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ عطف على المستكن في ﴿سيصلى﴾ لمكان الفصل بالمفعول. وقوله تعالى ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ نصب على الشتم والذم وقيل على الحالية بناءً على أن الإضافة غير حقيقية للاستقبال على ما ستسمعه إن شاء الله تعالى وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان. أخرج ابن عساكر عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر رضي الله تعالى عنهما أن عقيل بن أبي طالب دخل على معاوية فقال معاوية له: أين ترى عمك أبا لهب من النار؟ فقال له عقيل: إذا دخلتها فهو على يسارك مفترش عمتك حمالة الحطب والراكب خير من المركوب ولا أظن صحة هذا الخبر

عن الصادق لأن فيه ما فيه وكانت على ما في البحر عوراء، ووسمت بذلك لأنها على ما أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن زيد كانت تأتي بأغصان الشوك تطرحها بالليل في طريق رسول الله ﷺ.، وقيل: كانت تحمل حزمة الشوك والحسك والسعدان فتنشرها بالليل في طريقه عليه الصلاة والسلام، وكان رسول الله يطؤه كما يطأ الحرير. وروي عن قتادة أنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه وعن مجاهد أنها كانت تمشي بالنميمة. وأخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن أيضاً. وروي عن ابن عباس والسدي ويقال لمن يمشي بها يحمل الحطب بين الناس أي يوقد بينهم النائرة ويؤرث الشر، فالحطب مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة ومن ذلك قوله:

من البيض لم تصطد على ظهر لامة ... ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

وجعله رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر ففيه إيغال حسن وكذا قول الراجز:

إن بني الأدرم حمالو الحطب ... هم الوشاة في الرضاء والغضب

وقال ابن جرير: حمالة الخطايا والذنوب من قولهم فلان يحطب على ظهره إذا كان يكتسب الآثام والخطايا، والظاهر أن الحطب عليه مستعار للخطايا بجامع أن كلاً منهما مبدأ للإحراق. وقيل: الحطب جمع حاطب كحارس وحرس أي تحمل الجناة على الجنايات وهو محمل بعيد. وقرأ أبو حيوة وابن مقسم: «سَيُصَلَّى» بضم الياء وفتح الصاد وشد اللام «ومريئته» بالتصغير والهمز وقرىء «ومريته» بالتصغير وقلب الهمزة ياء وإدغامها. وقرأ الحسن وابن إسحاق «سَيُصْلَى» بضم الياء وسكون الصاد واختلس حركة الهاء في «أمرأته» أبو عمر. وفي رواية وقرأ أبو قلابة «حاملة الحطب» على وزن فاعلة مضافاً. وقرأ الأكثرون **﴿حمالةُ الحطبِ﴾** بالرفع والإضافة وقرىء «حمالةٌ للحطب» بالتنوين رفعاً ونصباً وبلام الجر في الحطب وقوله تعالى **﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾** جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر في موضع الحال من الضمير في **﴿حمالة﴾** وقيل من **﴿امرأته﴾** المعطوف على الضمير. وقيل: الظرف حال منها و **﴿حبل﴾** مرتفع به على الفاعلية. وقيل له خبر لامرأته وهي مبتدأ لا معطوفة على الضمير، و**﴿حبل﴾** فاعل. وعلى قراءة **﴿حمالة﴾** بالرفع قيل **﴿امرأته﴾** مبتدأ **﴿وحمالة﴾** خبر. و **﴿في جيدها حبل﴾** خبر ثان أو حال من ضمير **﴿حمالة﴾** أو الظرف كذلك و **﴿حبل﴾** مرتفع به على الفاعلية أو **﴿امرأته﴾** مبتدأ و **﴿حمالة﴾** صفته لأنه للماضي فيتعرف بالإضافة والخبر على ما سمعت أو **﴿امرأته﴾** عطف على الضمير و **﴿حمالة﴾** خبر مبتدأ محذوف أي هي حمالة وما بعد خبر ثان أو حال من ضمير حمالة على نظير ما مر. وفي التركيب غير ذلك من أوجه الاعراب سيذكر إن شاء الله تعالى وبعض ما ذكرناه ها هنا غير مطرد على جميع الأوجه في معنى الآية كما لا يخفى عند الاطلاع عليها على المتأمل. والمسد ما مسد أي فتل من الحبال فتلاً شديداً من ليف المقل على ما قال أبو الفتح ومن أي ليف على ما قيل، وقيل من لحاء شجر باليمن يسمى المسد وروي ذلك عن ابن زيد وقد يكون كما في البحر من جلود الإبل أو أوبارها ومنه قوله:

ومسد أمر من أيانق ... ليست بأنياب ولا حقائق

أي في عنقها حبل مما مسد من الحبال، والمراد تصويرها بصور الحطابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها تخسيساً لحالها وتحقيراً لها لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها إذ كانا في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدة. ولقد عيّر بغض الناس الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة الحطب فقال:

ماذا أردت إلى شتمي ومنقصتي ... أم ما تعير من حمالة الحطب
غراء شادخة في المجد غرتها ... كانت سليلة شيخ ثاقب الحسب

وقد أغضبها ذلك، فيروى أنها لما سمعت السورة أتت أبا بكر رضي الله تعالى عنه وهو مع رسول الله ﷺ في المسجد وبيدها فهر، فقالت: بلغني أن صاحبك هجاني ولأفعلن وأفعلن وإن كان شاعراً فأنا مثله أقول:

مذمماً أبينا ... ودينه قلينا ... وأمره عصينا

وأعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله ﷺ فروي أن أبا بكر قال لها: هل ترين معي أحداً؟ فقالت: أتهزأ بي لا أرى غيرك. فسكت أبو بكر ومضت وهي تقول: قريش تعلم أني بنت سيدها. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجبني عنها ملائكة فما رأتني وكفى الله تعالى شرها». وقيل: إن ذلك ترشيح للمجاز بناء على اعتباره في حمالة الحطب. وفي الكشاف يحتمل أن يكون المعنى تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه، وعليه فالحبل مستعار للسلسلة وروي هذا عن عروة بن الزبير ومجاهد وسفيان. وأمر الاعراب على ما في الكشف أنه إن نصب ﴿**حمالة**﴾ يكون حالاً هو والجملة أعني ﴿**في جيدها حبل**﴾ عن المعطوف على الضمير ﴿**سيصلى**﴾ أي ستصلى امرأته على هذه الحالة أو يكون ﴿**حمالة**﴾ نصباً على الذم والجملة وحدها حالاً أو امرأته في جيدها حبل جملة وقعت حالاً عن الضمير، ويحتمل عطف الجملة على الجملة على ضعف. وعلى الرفع يحتمل أن تكون الجملة حالاً وأن يكون ﴿**امرأته**﴾ عطفاً على الفاعل، و ﴿**حمالة الحطب في جيدها**﴾ جملة لا محل لها من الإعراب وقعت بياناً لكيفية صليها، أي هي حمالة الحطب انتهى فتأمل ولا تغفل. وعلى جميع الأوجه والاحتمالات إنما لم يقل سبحانه في عنقها والمعروف أن يذكر العنق مع الغل ونحوه مما فيه امتهان كما قال تعالى ﴿في أعناقهم أغلالاً﴾ [يس: ٨] والجيد مع الحلي كقوله:

أو أحسن من جيد المليحة حليها

ولو قال عنقها كان غثاً من الكلام. قال في الروض الآنف: لأنه تهكم نحو ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ [آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤] أي لا جيد لها فيحلى، ولو كان لكانت حليته هذه. ولتحقيرها قيل ﴿**امرأته**﴾ ولم يقل زوجه انتهى. وهو بديع جداً إلاّ أنه يعكر على آخره قوله تعالى ﴿وامرأته قائمة﴾ [هود: ٧١] ولعله استعان ها هنا على ما قال بالمقام. وعن قتادة أنه كان في جيدها قلادة من ودع وفي معناه قول الحسن من خرز. وقال ابن المسيب: كانت قلادة فاخرة من جوهر وأنها قالت: واللات والعزّى لأنفقنها على عداوة محمد ﷺ، ولعل المراد على هذا أنها تكون في نار جهنم ذات قلادة من حديد ممسود بدل قلادتها التي كانت تقول فيها لأنفقنها الخ. وعلى ما قبله تهجين أمر قلادتها لتأكيد ذمها بالبخل الدال عليه قوله تعالى: ﴿**حمالة الحطب**﴾ على ما نقلناه سابقاً عن قتادة ويحتمل غير ذلك، ووجه التعبير بالجيد على ما ذكر مما لا يخفى. وزعم بعضهم أن الكلام يحتمل أن يكون دعاء عليها بالخنق بالحبل وهو من الذهن مناط الثريا. نعم ذكر أنها ماتت يوم ماتت مخنوقة بحبل حملت به حزمة حطب لكن هذا لا يستدعي حمل ما ذكر على الدعاء هذا. واستشكل أمر تكليف أبي لهب بالإيمان مع قوله تعالى ﴿**سيصلى**﴾ الخ بأنه بعد أن أخبر الله تعالى عنه

بأنه سيصلى النار لا بد أن يصلاها ولا يصلاها إلاّ الكافر فالإخبار بذلك يتضمن الإخبار بأنه لا يؤمن أصلاً فمتى كان مكلفاً بالإيمان بما جاء به النبيّ ﷺ ومنه ما ذكر لزم أن يكون مكلفاً بأن يؤمن بأن لا يؤمن أصلاً وهو جمع بين النقيضين خارج عن حد الإمكان. وأجيب عنه بأن ما كلفه هو الإيمان بجميع ما جاء به النبيّ عليه الصلاة والسلام إجمالاً لا الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن الكريم حتى يلزم أن يكلف الإيمان بعدم إيمانه المستمر ويقال نحو هذا في الجواب عن تكليف الكافرين المذكورين في قوله تعالى ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [الكافرون: ١] الخ بالإيمان بناء على تعينهم مع قوله تعالى ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ [الكافرون: ٣] الخ بناء على دلالته على استمرار عدم عبادتهم ما يعبد عليه الصلاة والسلام. وأجاب بعضهم بأن قوله تعالى ﴿**سيصلى**﴾ الخ ليس نصاً في أنه لا يؤمن أصلاً فإن صَلي النار غير مختص بالكفار فيجوز أن يفهم أبو لهب منه أن دخوله النار لفسقه ومعاصيه لا لكفره، ولا يجري هذا في الجواب عن تكليف أولئك الكافرين بناء على فهمهم السورة إرادة الاستمرار. وأجاب بعض آخر بأن من جاء فيه مثل ذلك وعلم به مكلف بأن يؤمن بما عداه مما جاء به ﷺ. وأجاب الكعبي وأبو الحسين البصري وكذا القاضي عبد الجبار بغير ما ذكر مما رده الإمام وقيل في خصوص هذه الآية إن المعنى سيصلى ناراً ذات لهب ويخلد فيها إن مات ولم يؤمن فليس ذلك مما هو نص في أنه لا يؤمن، وما لهذه الأجوبة وما عليها يطلب من مطولات كتب الأصول والكلام، واستدل بقوله تعالى ﴿**وامرأته**﴾ على صحة أنكحة الكفار والله تعالى أعلم.